بلد غير مكتمل باستمرار

بقلم ريد أويدا

مع أن معظم المهاجرين الأوروبيين وصلوا إلى الشواطئ الأميركية خلال القرن الماضي فلا زال إرثهم حياً في الأحياء الإثنية مثل غريك تاون التي تقع في وسط مدينة ديترويت، بولاية ميشيغان.

لقد سُميّت الولايات المتحدة بـ"البلد غير المكتمل باستمرار"، لأنها تُبنى ويعاد بناؤها باستمرار على يد المهاجرين. بالطبع، لقد كانت الولايات المتحدة البلد الأول في العالم الذي يقصده المهاجرون، من القرن التاسع عشر حتى الوقت الحاضر. يشكل القادمون الجدد تحدياً متكرراً أساسياً للحياة الأميركية: كيف تستطيع مجتمعات المهاجرين – المختلفة عن أهل البلاد الأصليين وعن بعضها البعض – أن تتعلم العمل بصورة تعاونية في ظروف من الانفتاح، والتغيير، والاختيار؟

لقد أصدر المشرعون وصُنّاع السياسة الأميركيون قوانين وإصلاحات مؤسساتية للمساعدة في مواجهة هذا التحدي عن طريق توسيع الفرص أمام المهاجرين بالنسبة للتعليم والحركة الاجتماعية. وشجع القادة أيضاً نوعاً من الديمقراطية التعدّدية تشمل القادمين الجدد في نشاطات تطوعية وجمعيات مدنية. لقد أطلقت الهجرة شرارة التغيير الاجتماعي والثقافي التي نتج عنها شراكة بين المهاجرين والمواطنين المولودين في البلاد لأجل خلق حياة تعاونية ومؤسساتية، كمجتمع قومي وككوكبة من المجتمعات المحلية التي تميزها الفوارق الطبقية والعرقية، والدينية، والثقافية.

المهاجرون الاوائل

كان معدل المهاجرين الذين يصلون كل سنة إلى سواحل الولايات المتحدة في الأربعينات من القرن التاسع عشر 170 ألفا، وبحلول العام 1850، بلغ 10 بالمئة من مجموع سكان البلاد البالغ عددهم 23000 ألف نسمة، من المولودين في الخارج. وخلال الفترة الممتدة من حقبة

الأربعينيات من القرن التاسع عشر والحرب الأهلية، عزز المهاجرون الأيرلنديون الكاثوليك الهاربون من المجاعة، نمو المدن وزودوها باليد العاملة المطلوبة لبناء القنوات وخطوط السكك الحديدية. وقد انتقل الألمان والهولنديون والإسكندنافيون إلى شمال الوسط الغربي حيث ساعدت المزارع التي تملكها عائلاتهم في تطور الاقتصاد الزراعي للمنطقة. فأقاموا أحياناً كثيرة المجتمعات الريفية التي كانت تشبه القرى في النرويج والسويد، وألمانيا، وهولندا. وازدادت الهجرة أيضاً من جنوب شرقي الصين خلال تلك الفترة. فبدأ المزارعون والعمال الزراعيون الذين عاشت عائلاتهم طيلة أجيال على مقربة من هونغ كونغ والداخل بالهجرة إلى الولايات المتحدة وهاوائي سعياً وراء ظروف معيشية وفرص أفضل.

خلال عقود من الزمن بعد الحرب الأهلية، بلغ تدفق الهجرة ذروة جديدة. بحلول الثمانينات من القرن التاسع عشر، كان يدخل البلاد 500 ألف مهاجر كل سنة. وواصلت أغلبية هؤلاء المهاجرين المجيء من أيرلندا، وألمانيا، وهولندا، وأسكندينافيا. وقدمت بريطانيا وكندا أيضاً العديد من القادمين الجدد.

في التسعينات من القرن التاسع عشر، بدأت أنماط المهاجرين الأوروبيين تتحول من شمال وغرب أوروبا إلى جنوب وشرق أوروبا، آتية بالإيطاليين واليونانيين، والسلاف واليهود من أوروبا الشرقية وروسيا، الذين كانوا يلقبون، "بالمهاجرين الجدد" من قِبَل الصحف آنذاك. ارتفع عدد المهاجرين القادمين كل سنة إلى أقل قليلاً من المليون مهاجر. بعض صُنّاع الرأي العام والقادة الخائفين من تغير التركيبة السكانية بسبب الهجرة، دعوا إلى استبعاد المهاجرين من آسيا، وإلى إدخال نظام الحصص القائم على الأصول القومية للحد من عدد المهاجرين من أوروبا، وعلى وجه الخصوص من بلدان أوروبا الجنوبية والشرقية. وخلال الفترة الممتدة بين سنة 1921 و1924، تابع الكونغرس ذلك الاتجاه وأصدر تشريعات جديدة تحدد الحصص الحصرية والاستثناءات.

وقد لعبت الهجرة خلال الفترة بين 1930 و1960، دوراً صغيراً في الحياة الأميركية. فقد حدد نظام الحصص بشكل كبير تدفق الناس المقبولين شرعياً والمولودين في الخارج. إضافة إلى ذلك، خلقت المستويات العالية للبطالة خلال الركود الكبير رادعاً اقتصادياً للهجرة إلى الولايات المتحدة، كما أن الحرب العالمية الثانية أعاقت الهجرة بصورة طوعية. وقد قبلت الولايات المتحدة بعد أن وضعت الحرب أوزارها بعض اللاجئين لكن نظام الحصص حدّ من الهجرة .

الحشود لا تزال تندفع لحضور مهرجان سان جينارو السنوي، الذي احتفل به للمرة الأولى سنة 1926 المهاجرون الإيطاليون الذين استقروا في الجانب الشرقي الأدنى لمدينة نيويورك، وهو حي كان يرحب بالموجات المتعاقبة للمهاجرين منذ القرن التاسع عشر.

نقطة تحول القرن العشرين

حصلت نقطة التحول سنة 1965 عند تبني قانون هارت – سلر الخاص بالهجرة. ألغى هذا القانون عمليات الاستثناء والقيود على الهجرة القائمة على العِرق والأصول القومية، ووضع إطار عمل جديداً للهجرة يعطي الأولوية لإعادة توحيد العائلات والأفضليات المهنية. وقد فتح ذلك باب الولايات المتحدة أمام الناس من كافة أنحاء العالم وولّد تدفقاً واسعاً من المهاجرين من الحاصلين على التعليم العالي، والمهاجرين من الحاصلين على التعليم الأدنى مستوى من ذلك. وبدأ عدد القادمين كل سنة يساوي ويتجاوز معدلات الهجرة السنوية في مطلع القرن العشرين. وما هو أهم، أن الأصول القومية للمهاجرين تحوّلت من أوروبا إلى أميركا اللاتينية وآسيا. بحلول سنة 2000، جاء أكثر من نصف المهاجرين إلى الولايات المتحدة من أميركا اللاتينية وجاء أكثر من الربع من آسيا، على عكس ما جرى قبل قرن من الزمن عندما كان حوالي تسعة من أصل كل 10 مهاجرين يأتون من أوروبا.

منذ السبعينات من القرن الماضي، وحتى بداية القرن الحادي والعشرين – أي حقبة العولمة المتزايدة – واصل المهاجرون اختيار الولايات المتحدة باعتبارها وجهتهم المفضّلة. وكان سكان الولايات المتحدة متنوعين أكثر من أي وقت مضى، وواصلت سمعة الولايات المتحدة كبلد للفرص والمجتمع المنفتح للتعددية الإثنية والثقافية، في اجتذاب القادمين الجدد. وكما حولت الأطعمة القومية، وكذلك الخطاب، والموسيقى، واللباس القومي، وسلوك الإيطاليين، والألمان، واليهود والأيرلنديين المجتمعات الأميركية خلال الثورة الصناعية، كذلك فإن الثقافات التي جاء بها المهاجرون المكسيكيون، والبرازيليون، والكوريون، والفلبينيون، والعرب، والكاريبيون، أعادت تشكيل السلوك الثقافي والاستهلاكي في فترة ما بعد العصر الصناعي.

ساميول حق نور، وأصله من باكستان، أعلن أنه أفضل بائع أطعمة في مدينة نيويورك في العام 2006 . تمثل شعبية العربة التي يبيع عليها نور أطعمته، وتدعى "حلال سامي،" نموذجاً لكيف أن المهاجرين يستمرون في إثراء – وتغيير– المطبخ الأميركي والثقافة الأميركية.

المهاجرون الجدد يتكيفون

وبحلول أواخر القرن العشرين، كان المهاجرون المتحدرون من "المهاجرين الجدد" المبكرين في بداية القرن العشرين من أوروبا الجنوبية والشرقية – وأوائل المهاجرين الآسيويين، والأميركيين اللاتين، والكاريبيين من تلك الحقبة الزمنية – قد اندمجوا تماماً في المجتمع الأميركي. لقد اكتسب المهاجرون السلاف واليهود والقادمون من بلدان البحر المتوسط في بداية القرن الواحد والعشرين مكانة مركزية في الثقافة الإقليمية للشمال الصناعي، في حين أن المكسيكيين في الجنوب الغربي، والصينيين واليابانيين، والكوريين والفلبينيين في سواحل المحيط الهادئ وهاوائي، أثروْا كثيراً تلك المناطق. علاوة على ذلك، ازدادت الحركة السكنية والاجتماعية بين المتحدرين من هؤلاء المهاجرين، وباتت الإثنية أقل أهمية على المستوى التوظيفي، والتعليمي، والإسكاني، وحتى على مستوى خيارات الزواج.

حافظت الولايات المتحدة بنجاح على تماسكها القومي وهي تستوعب التدفق الهائل من المهاجرين في مطلع القرن العشرين. مؤخراً، تساءل بعض العلماء والمعلقين عما إذا كان هذا النمط سوف يستمر مع اندماج القادمين من أميركا اللاتينية، وآسيا، وأفريقيا، وأوروبا، والشرق الأوسط. بعض القادة والمعلقين يشيرون إلى أن التأييد الشعبي للهجرة يتوقف على المدى الطويل على تقدم ودمج كافة المجموعات المهاجرة. يُظهر التاريخ أن الموجات المتعاقبة من المهاجرين إلى الولايات المتحدة قدمت إبداعاً ومرونة رائعة في التكيّف مع الثقافة التعددية الأميركية، حتى عندما ساعدت في تحويلها.

ريد أويدا أستاذ في قسم التاريخ في جامعة تافتس. وهو مؤلف كتاب أميركا المهاجرة ما بعد الحرب، ومن محرري مجلة نيو أميركانز.

لمزيد من المعلومات حول كيف يصبح الإنسان أميركياً: ما بعد بوتقة الانصهار

انظر إي جورنال يو إس إي. http://goo.gl/TSb°E

الآراء المعبر عنها في هذا المقال لا تمثل بالضرورة وجهات نظر أو سياسات الحكومة الأميركية.